العراق "الرجل المريض"

مظاهر المرض وارهاصات السقوط

شهد اواخر القرن التاسع عشر ارهاصات سقوط الدولة العثمانية، التي عرفت باسم الرجل المريض، الى ان تم القضاء عليها تماما في الحرب العالمية الاولى.

عاشت الدولة العثمانية اربعة قرون كاحد اطول الامبراطوريات عمرا وامتدادا، ولكن تغير الواقع الاوروبي باتجاه القوة والتنافس على مستعمرات جديدة من جهة، وتنامي النزاعات القومية المحلية من جهة اخرى، جعل كيان الدولة العثمانية مهددا من الاطماع الاستعمارية، ومن نخر التيارات القومية المحلية وعدم القدرة على الاصلاح.

ولكن لم يكن من السهل اتفاق الدول الاستعمارية على اقتسام الغنيمة العثمانية الامر الذي جير لصالح بقاء الدولة شكلا مع سعي تلك للاطراف الاستعمارية - بريطانيا، المانيا، فرنسا، روسيا- لتوطيد نفوذها، ورغم حديثها عن وحدة وسلامة الدولة العثمانية فان كل طرف كان يسعى من اجل توطيد نفوذه بما يجعله الوريث الاكبر حظا في حالة وفاة "الرجل المريض". فامتد النفوذ الافرنسي في شمال افريقيا، واتسع النفوذ البريطاني في الخليج العربي، وعمقت روسيا القيصرية نفوذها في البلقان الارثدوكسي، اما المانيا فكرست نفوذهاعبر المؤسسة العسكرية العثمانية، والتوسع الاقتصادي الذي بلغ ذروته في امتياز سكة حديد بغداد-برلين الذي من شأنه وصول المانيا الى المياه الدافئة في الخليج العربي بما يهديد المصالح البريطانية.

كان نمو الشعور القومي بين شعوب الدولة العثمانية انعكاسا للتطور القومي في اوروبا، واذا كانت المشاعر القومية عامل وحدة للدولة الاوروبية الحديثة كالمانيا وفرنسا وايطاليا، فانها كان عامل فرقة في كيان الدولة العثمانية الذي اعتمد الاسلام وليس القومية اساسا لوحدته.

واتخذت بريطانيا وفرنسا من الورقة القومية اداة لمحاربة الشرعية الاسلامية للدولة العثمانية، فكانت فرنسا وراء اول مؤتمر قومي عربي في باريس عام 1913، في حين تبنت بريطانيا الحركة القومية العربية المتمثلة بثورة الشريف حسين في مكة عام 1916.

وفي المقابل كانت ورقة السلطان العثماني، عبد الحميد في البقاء هي تناقضات المصالح الدولية، وخوف كافة الاطراف من بديل غيرمحسوب لسقوط الخلافة العثمانية.

جاءت الاصلاحات الدستورية لعام 1908 جرعة متأخرة لانقاذ الكيان العثماني خاصة وانها فتحت الباب لنهج طوراني جديد استفز المشاعر القومية للاخرين وبالذات العرب.

وجاءت هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولي لتنهي الكيان العثماني مع ترك المشرق العربي في حالة انقسام وصراع وهيمنة استعمارية، مما مهد لفرض كيان غريب- اسرائيل- على الواقع العربي.

ما اشبه اليوم بالبارحة

ان حرب الخليج الثانية وسياسات النظام من جهة، والموقف الامريكي من هذا النظام، فجرت تناقضات الكيان العراقي ليصبح "الرجل المريض" في المنطقة، وفيما يلي مظاهر هذه الحالة المرضية:

- كانت اداة البعث في ضبط العراق هي حكم مركزي ديكتاتوري يملك العقاب والثواب بامتلاكه القوة والمال، الامر الذي تقلص بعد مضي سبع سنوات من الحصار والاحتواء، حيث بات قسما كبيرا من سكان العراق في الشمال والجنوب خارج سيطرة الحكم المركزي.

- ان طروحات البعث القومية، في بلد متعدد القوميات، ما كان لها ان تنجح في بناء الوحدة الوطنية، فبقي الاكراد على هامش الدولة والمجتمع، كما ان النهج الطائفي للنظام، الذي خاض حربا ضد ايران دامت ثمان سنوات، كرس وعمق ماهو موجود اصلا من انقسام طائفي.

-لجأت الماكنة الاعلامية الغربية الى استثمار التناقض الاثني والطائفي كسلاح لاسقاط النظام ابان احتلال العراق للكويت، فاستبدلت اسم العراق لصالح مكوناته، فصار: "شيعي"، "سني" وغيرها من كرد و تركمان واشوريين. ان هذه الاثارة كرست الانقسام بين العراقيين، تماما كما فعلت فرنسا وبريطانيا مع الدولة العثمانية عندما لعبت ورقة القوميات والطوائف الاخرى.

-ان الولايات المتحدة، التي لم تكن مستعدة لاسقاط النظام ابان حرب الخليج الثانية خوفا من مسؤولية وتبعات ادارة البلاد، تركت مهمة التغير للجيش والحلقات الاقرب في النظام، وبانتظار هذا التغيير فرضت حصارا سياسيا واقتصاديا كان له الاثر الكبير في تفكيك ونخر الكيان العراقي من الداخل، دون اسقاط النظام او رأسه. كما انه ليس لواشنطن مصلحة في تغيير في العراق يصب لمصلحة ايران او سوريا، والى ان تجد واشنطن البديل المناسب لها لحكم العراق سيبقى العراق مخلوع الانياب وخاضعا للحصار.

- ان صيغة "الغذاء مقابل النفط" حسب قرار مجلس الامن 986 هي تكريس لسياسة الاحتواء والشلل، بمايمنع المجاعة ولكن دون استرجاع العافية مع ابقاء العراق تحت الوصاية.

- رغم العلاقة السلبية للنظام العراقي مع معظم جيرانه، الا ان تناقض مصالح الجيران يجعل من اي تغيير غير محسوب خطرا، وهذا يفسر سياسة دمشق بالانفتاح على بغداد خوفا من ان ترث واشنطن او انقرة النظام العراقي الحالي.

- ان استمرار النظام العراقي في نهجة دون مراجعة او انفتاح هو مظهر قاتل للحالة المرضية العراقية. فالنظام في اصراره على نهجة سهل مهمة استمرار الحصار والشلل، ويكفي الاشارة الى خطاب الرئس العراقي اخيرا، في ذكرى 17 تموز، بقوله ان نتائج الحرب الاخيرة وسنوات الحصار السبع هي انتصار عراقي وهزيمة لامريكا، وبدلا من الحديث عن تجاوز الاخطاء والانفتاح، يتحدث الرئيس العراقي عن تحرير فلسطين والوحدة العربية في وقت سيادة العراق فيه معلقة، واجوائه محظورة، وشماله خارج عن سيطرته، وشعبه جائع ومريض. وفي الوقت الذي ربطت قرارات مجلس الامن رفع الحصار باثبات حسن نوايا النظام العراقي يطلع علينا وزير الخارجية العراقي (21/7/1997) ليقول ان مسؤولية كل ماحدث، وبما في ذلك احتلال الكويت، هو "النهج الاعوج" للكويت، وان قرار 688 الخاص بحقوق الانسان الذي تقدمت به فرنسا، هو قرار "سخيف". واما المعارضين العراقيين فعددهم لايتجاوز اصابع اليدين، والبقية مجرد "خونة" اختاروا طريقهم، وكل شيء بخير في العراق !!!

وبالمقارنة بالرجل المريض العثماني، نجد ان الاخير حاول الاصلاح بتبني الدستورية عام 1908، ولكن مريض بغداد يرفض حتى الاعتراف بوجود المرض، وبمثل هذه المكابرة يعجل النظام في تلاشي العراق، كما تلاشت الدولة العثمانية. وما نسمعه اليوم من حديث عن احترام وحدة وسيادة العراق، هو تكرار لما كان يقال للمريض العثماني قبل وفاته وتقاسم ارثه.

- وما اشبه انقسام عراقيي اليوم الى طوائف وقوميات بالحالة العثمانية. ويذكرنا اليوم قوميو الاكراد بعروبيي الامس في استجارتهم من الرمضاء بالنار.

وعراقنا اليوم يفتقد ما شهدته ولادة الدولة العراقية قبل اكثر من سبعين سنة من تآلف شيعي سني في بوتقة وطنية من خلال العمل السياسي المشترك من اجل الاستقلال. ان هذه الظاهرة اسقطها النظام بنهجه الاستبدادي، وتناستها بعض قوى المعارضة لصالح التحالف مع الاجنبي، عربيا كان ام اعجميا.

السقوط المؤجل للدولة العراقية

ان استمرار مكابرة النظام برفضه المراجعة والانفتاح، باعتبار انه ليس "بالامكان خير مما كان"، وعيشه على جرعات من الوهم الزائف بان مجرد استمراره لصباح يوم اخر هو نصر، يصبح تكريسا لشعار: "انا ومن بعدي الطوفان"، يقابله انقسام المعارضة العراقية الى جيوب قومية وطائفية وفئوية مشغولة في تبرير عداء بعضها للبعض الاخر. كل هذا يجعل من حالة التلاشي او السقوط العراقي حالة مؤجلة تنتظر من يفجرها.

كما ان الممارسة العملية لسياسة الولايات المتحدة تجاه العراق تجعل من تفجير العراق احتمالا واردا. فواشنطن تقول لارفع للحصار مادام صدام حسين في الحكم، ولكنها في الوقت ذاته لاتقدم اي وصفه للتغيير (باستثناء

محاولات انقلاب فاشلة) سوى الحصار، الذي ساعد مع مرور الزمن على خلق البيئة المناسبة لتفجير العراق كشعب وكدولة. ان الكثير من العناصر العراقية المعارضة التي راهنت على واشنطن من اجل التغيير وجدت نفسها اليوم تعاني مرارة الخيبة والاحباط، فرئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني العراقي الدكتور احمد الجلبي يعلن في مقابلة تلفزيونية (26/6/1997) في واشنطن: ان السي. آيه. اي احبطت محاولة لاسقاط النظام العراقي من كردستان في اذار 1995، كما ان السيد مجيد الخوئي رئيس مؤسسة الخوئي يعلن صراحة (الوطن الكويتية 26/7/1997) ان : "الموقف الامريكي متذبذب . . والامريكان هم المستفيدون من بقاء الوضع كما هو عليه لاسباب خاصة . . . وانا استبعد وجود جدية ومصداقية لموقف امريكا مع العراق".

وعندما يطالب الاخرون واشنطن برفع الحصار تتذرع بتعنت وتحايل النظام في تنفيذ قرارات مجلس الامن، ناسية انها ربطت رفع الحصار باسقاط رأس النظام وليس بتنفيذ القرارات. ومن اجل استمرار الحصار ستجد واشنطن الحجة تلو الاخرى لادامته بانتظار استبدال صدام حسين بالبديل "المناسب"، الذي قد يسبقه سقوط العراق اولا. كل هذا في وقت ليس هناك طرف دولي او عربي مستعد للمواجهة مع واشنطن من اجل رفع الحصار عن عراق صدام حسين.

ان تحرك الدول المعنية بالشأن العراقي يشير الى تبلور ملامح محورين متصارعين لوراثة "الرجل المريض" وملء الفراغ الناجم عن تفجر العراق، وكلاهما ليس في وارد خلاصه.

المحور الاول: يتشكل من انقرة واسرائيل بقيادة الولايات المتحدة، تتولى فيه تركيا، التي لها حدود مشتركة مع العراق، دور الصدارة بتحولها الى صاحبة النفوذ الاول في شمال العراق حيث تخلت عن سياسة دفع الاحزاب الكردية للحوار مع بغداد لصالح التحالف الكردي التركي. ان تعزيز الوجود التركي في شمال العراق اصبح عمليا موطىء قدم للقفز الى بغداد في حال انفجار الوضع فيها، في حين تتكفل الآلة العسكرية الاسرائيلية لجم سوريا، ويترك للاساطيل الامريكية في الخليج ردع ايران.

المحور الثاني: يعتمد التحالف السوري الايراني، ففي الوقت الذي لايرى الطرفان مصلحة لهما في استعادة النظام العراقي لعافيته،الا انهما اكثر خوفا من سقوط بغداد بيد المحور التركي الامريكي الاسرائيلي. ولكن العداء المستفحل بين زعامة صدام حسين من جهة والزعامة الشيعية الايرانية من جهة ثانية، لايسمح بتحالف حقيقي بين الاثنين، كما ان سوريا ليست في وارد التضحية بايران او التصدي لواشنطن من اجل انقاذ العراق بقيادة صدام حسين، وعليه يصبح الاعداد والاستعداد للتصدي للمحور الاول في حال انفجار الوضع في العراق هو النهج الاستراتيجي لكلا البلدين-ايران وسوريا. وخطوات التقارب السوري العراقي المحدودة والمدروسة تصب في خانة تحسين الموقع السوري في لعبة شد الحبل بين المحورين.

امكانية تحاشي صدام المحورين

ليس من مصلحة سوريا او ايران التورط في صراع مع محور تقوده الولايات المتحدة، وسيسعى الطرفان السوري والايراني لمنع مثل هذه المواجهة، وذلك باقناع الادارة الامريكية بانهما ليسا ضد مصالح امريكا المشروعة في العراق، بل على استعداد للتعاون مع واشنطن لانهاء حالة الانتظار بما تحمله من مخاوف الانفجار غير المحسوب، لصالح عملية تغيير في العراق بقيادة واشنطن، شرط ان لايكون العداء لايران او سوريا هدفا لقادة للنظام الجديد في بغداد.

وبعد ان فشل د. احمد الجلبي في اقناع امريكا بهذا التوجه، يتجه جلال الطالباني اليوم الى واشنطن حاملا تطمينات ايرانية بهذا الصدد. ان لجلال كل المصلحة في تحاشي صراع بين تركيا وايران يجعل منه ضحيته الاولى، حيث سيفرض عليه الانحياز: فان انحاز لتركيا عليه ان يرضى بزعامة البارزاني لحماية جبهته الواسعة مع ايران. وان ارتضى التحالف مع ايران عليه ان يتحمل نتائج الغضب الامريكي والتركي معاً، والاسيضطر كما فعل سابقا البارزاني للاستعانة ببغداد. ان امكانية نجاح مسعى الطالباني في تحاشي صراع المحورين تبقى محدودة ان لم تكن معدومة، فالمزاج السياسي الامريكي بوجود كونغرس معاد لايران وسوريا سيجعل من الصعب تمرير مثل هذه الصفقة، كما ان تركيا تريد تنازلات سورية مقابل تعاونها. اما اسرائيل ومن ورائها اللوبي الاسرائيلي الفاعل في واشنطن، لاتجد مبررا لمكافئة دمشق على تعاونها في تغيير النظام العراقي، مادامت سورية غير قادرة على وراثة النظام العراقي او منع سقوطه، وليست مستعدة لتقديم التنازلات الاضافية لصالح تل ابيب.

الوحدة الوطنية اولا

واخيرا، اذا كان النظام بديكتاتوريته وبعض التنظيمات الحزبية بانغلاقها الطائفي والاثني، قد مهدت، عن قصد او بدونه، الطريق الى جهنم السقوط والتلاشي، فان راية الوحدة الوطنية هي التي يمكن ان تقود معذبي العراق الى السلامة.

ان التأسيس لمثل هذه الوحدة الوطنية يحتاج الى تيار عراقي يكرس اولوية الوحدة الوطنية القائمة على "الانتماء العراقي" هدفا وممارسة، تيار قادر على تجاوز الطائفية والعرقية عبر الممارسة العملية. تيار لايعادي الدين وان كان يدعو لفصله عن الدولة، تيار يؤمن بحرية العبادة والمذاهب ولكن يرفض انفراد القلة او ديكتاتورية الاغلبية باسم الطائفية. تيار يجسد برموزه الوحدة الوطنية على قاعدة المشاركة الفاعلة والمتكافئة.

ان مثل هذا التيار لايلغي الايديولوجيات (الاسلامية، القومية وغيرها)، بل سيكون العامل المساعد لتعايشها مع بعضها البعض.

ان هذا التيار هو ليس حاجة وطنية لانهاء الديكتاتورية فحسب، بل ضرورة لبقاء وبناء عراق متحضر، آمن، ومسالم.

(الملف العراقي، العدد 68 - آب 1997)

❋ ❋ ❋